

جماليات الشعر بين تجليات المفهوم والوظيفة

Aesthetics of Poetry between Manifestations of Concept and Function

*عبد الحميد معيفي

abdelhamid maifi

كلية الآداب واللغات، جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف، (الجزائر)

University of Taref- Algeria

hamidmaifi17@gmail.com

| | | |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2020/09/15 | تاريخ القبول: 2020/05/01 | تاريخ الإرسال: 2019/12/07 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

ملخص البحث

يُحظى الشعر باهتمام كبير من طرف النقاد والدارسين والمتلقين منذ عُرف قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة، ومنذ ذلك الزمن صار الشعر لغزا محيرا؛ لأن كلمة شعر خفيفة اللفظ عميقة المعنى بعيدة المرامي شاسعة الحدود وصعبة المنال في الآن نفسه، فلو نسأل أيّ دارس أو باحث وقلنا له ما هو الشعر، لقدّم لنا مفهوما عن الشعر. إذا كلنا نستطيع أن نعطي تعريفا للشعر، ولكن لا أحد منا يستطيع أن يجزم بأن تعريفه، هو الأصوب. إذا في خضم هذا نحاول أن نتطرق إلى مفهوم الشعر محاولين مزج ما نعرفه عن هذه العبارة، بما قاله النقاد والأدباء والشعراء أنفسهم، وساعين من خلال ذلك لتحديد وظائفه المتعددة، مع تناول بعض الأمثلة الشعرية ومتقربين منها من أجل المقارنة من جهة والتحليل من جهة ثانية والتعليق من جهة ثالثة، وكذلك النقد من جهة رابعة إن أمكننا ذلك .

الكلمات المفتاح : الشعر، المفهوم، الوظيفة، الدارسون، النقاد

Abstract :

Poetry receives a lot of attention from critics, scholars and recipients since it was known one hundred and fifty years before the emergence of Islam, and since that time poetry has become a mystery, because the word poetry is light, deep in meaning, far from wide-ranging goals and difficult to reach at the same time, if we ask any student or researcher and say what is poetry for him, he would give us an understanding of poetry. If all of us can give poetry a definition, but none of us can say that its definition is the right one. So, in the midst of this we try to address the concept of poetry and try to mix what we know about this phrase, with what critics, writers and poets themselves

*عبد الحميد معيفي، hamidmaifi17@gmail.com

have said, and they seek through this to define its multiple functions, while dealing with some examples of poetry and those close to them for comparison on the one hand and analysis on the second and comment from a third party, as well as criticism on a fourth side if we can.

Keywords: Poetry, Concept, Function, Scholars, and Critics.



تمهيد :

يبقى الشعر عالما شاسعا لا يقبل الحدود، وكلما حاولنا التقرب من حدوده إلا وزاد اتساعا، فهو الذي اتعب الدارسين والنقاد ليضعوا له وصفا محددًا فأبى ورفض، فهو مثل الزئبق لا يُمسك، ونزار قباني الذي عايش الشعر نصف قرن لم يجد لهذا اللغز حلا، فالشعر عالم مضيء وغريب، يريحك ويتعبك، يرهقك ويمتدك، قريب منك وبعيد، يتركك تسافر على متنه، لكن لا تعلم أين ومتى وكيف تتوقف أو تخط الرحال من بعد سفر طويل، ليظل الشاعر محلقا في سماءه كمثل الطائر بعيدا عن كل الأخطار والحدود التي يفرضها الواقع، وإن كان منطلقا منه، لكنه بخياله يتعد عن المفروض ساعيا إلى التحرر، لأن الشعر يبعث فيه روح الأمل المشرق ليبقى الشاعر حاملا الراية البيضاء أينما حل وأينما توجه.

أولا- مفهوم الشعر:

لقد تعددت الأقوال والتعريفات والمفاهيم لكلمة " شعر"، إنها كلمة ليست كباقي الكلمات، لفظة حينما يقولها القائل يحس المتلقي بأنها تمس، أو تعود إلى الشعور، وهذا الشعور يعني الإحساس، ونقول: هل كل وجدان إنسان يمكن له أن يُصدر الشعر، سؤال يحتاج إلى دراسة وتعمق، إذا نقول: ما هو الشعر؟

فلإجابة عن مثل هذا السؤال يجب أن نجيب عنه بقول الشاعر " نزار قباني" حين يعرفه بقوله: « الشعر هو الرقص، والكلام عنه مراقبة الخطوات، وأنا بصراحة أحب أن أرقص، ولا يعنيني أبدا أن أقيس خطواتي؛ لأن مجرد التفكير بما أفعله يفقدني توازني.»¹

إن نزار قباني هنا رغم أنه شاعر متميز، إلا أنه أمام الشعر بقي متواضعا؛ لأنه يعلم بأن الشعر عظيم، فهو حين اعتبر الشعر رقصا، لم يقل بأنني راقص أي شاعر، وإنما قال " أحب أن أرقص"، أي حين أحب أن أقول الشعر، فهو يريد أن يقول، ولا يراقب ما يقول؛ لأن هذه المراقبة تجعله

يعجز عن قوله للشعر، فهو يريد أن يقول وكفى، وهذا يدل على أن الإنسان، وخاصة الشاعر لا يمكن أن يراقب إحساسه أو يتحكم فيه.

إذا من خلال ذلك نستنتج بأن نزار قباني، وكأنه يقول: بأنه لا يمكن مراقبة الشعر وكذلك لا يمكن مراقبة الشاعر؛ لأننا لو تفكرنا في ذلك، لفكرنا في إنهاء العملية الشعرية وهذا لا يجوز في الحياة الشعرية، والشعر في نظره بعيد عن الرقابة، والشاعر مثل الطائر الذي لا يمكن لنا أن نرسم له طريقا في الجو، ونريد بأن لا يجيد عن ذلك الطريق، وإذا استطعنا أن نفعل ذلك مع الطائر، فإننا نستطيع أن نفعل ذلك مع الشاعر وهذا أمر مستحيل، وبهذا فتعريف نزار قباني يتجاوز التعريف الذي يحصر الشعر في الوزن والقافية والمعنى. إذا « الشعر ليس هو الكلام الموزون المقفى، بل هو التعبير الشخصي الفريد عن رؤيا الشاعر. »²

والكثير منا يتكلم عن الوزن والقافية، وكأنهما شئى ثانوي، جاعلا الشعر كلاما تعبيريا فريدا، أي تعبيراً متميزاً، والتميز يعني أنه لا يجوز لكل الناس أن يأتيوا بمثل هذا التعبير لأنه تعبير عن رؤيا إنسان له إحساس فياض، نابغ من تجربة أثرت إيجاباً أو سلباً، وبعد ذلك تخمرت وانصهرت بأعماق هذا الإنسان، لتخرج العبارات معبرة عنها بأصدق تعبي، واصفة رؤية هذا الشاعر، و«... الشاعر لا ينقل الواقع مثلما هو بل ينقله في ضوء رؤيا مغايرة له بقصد إضفاء ما ينقصه من جمال عليه.»³

ومهمة الشاعر لا تنحصر في عملية تصويرية لواقع ما، أو لمنظر، أو لحالة عابرة وإنما هو بناء وترميم ورفض وترتيب، ثم بعد ذلك تصوير وإتقان لحالة حدثت لك، فتعجز عن وصفها رغم أنها تخصك، لكن يأتي من يعبر لك عنها بكلمات رقيقة وعذبة هي كلمات الشعر الموحى والذال عن خلجات نفسك التي عجزت عن البوح بها، فجاء من يستطيع أن ييوح بدلا منك، إنه الشاعر الذي يصبح الشعر عنده ليس مجرد كلمات تُقدّم لنا معنى معيناً، بل الشعر عنده «...

كشف وتجاوز لكل ما هو مألوف في حياتنا الفنية والإبداعية على السواء.»

هذا هو الشعر إنه الكشف عن أسرار النفس، وتعرية وإيضاح ووصول إلى الأعماق وانتقال إلى الأفق البعيد، وتجاوز للواقع المعاش، وبحث دائم في خبايا المجهول، إنه الفن بأسمى معانيه، وأبداع وأبهى صورته، فهو «... بذلك يعطينا نوعاً من المعرفة يعجز عنه العلم والفلسفة.»⁴، إنه يقدم لك المعارف، ويكشف لك عن الحقائق، ويتجاوز المنطق ويكسر الحواجز

والحدود، إنه السباحة في الخيال الفسيح، وتحرر من الواقع بكل أبعاده، وليس هروبا منه أو خوفا، بل معايشة له وتجاوز في الوقت نفسه .

فالشعر يعمل على مزج الممكن بالمستحيل، فيلامس الواقع، ويسبح في الخيال ليصير تعبيراً مميّزاً له قانونه الخاص، يفيد ويمتّع، يؤثر في المتلقي فيأسره، يجعله طرفاً في العملية الشعرية، ليعايشها بكل إحساسه، فيصبح جزءاً منها؛ لأن المتلقي يعرف من خلاله قيمة الحياة، وقيمة نفسه، وهذا هو الكشف والإيضاح الذي يسعى إليهما الشاعر من خلال شعره، فالشعر «... سؤال دائم، وبحث دائم، وتجاوز دائم، من أجل تغيير الحياة وجعلها أكثر جمالاً ونقاوة وإضاءة».⁵

إنه يجمل وينقي ويضيء، له أدوار متعددة، ونحن نراها صعبة التحقق، لكن الشعر يجعلها بلمسة الشاعر الفنية سهلة طيبة تحمل بين ثناياها الحجّة والبرهان، لتزيد العلاقة بين الشاع والمتلقي متانة وقوة، فهو «... متعة العقل الذي ينفذ إلى صميم الطبيعة ويستكشف ما فيها من عقل يبعث فيها الحياة، هو فرحة الذكاء البشري حين ينفذ بأبصاره إلى أعماق الكون لكي يعيد خلقه مرسلًا عليه أضواء من الشعور».⁶ فهو التحرر من قيود المنطق، إنه الانطلاق إلى عالم يكون بعيداً عن المراقبة، ومتحرراً من كل القيود، إنه عالم الخيال الفسيح، أين يجد العقل ذاته فيكتشف حقيقة الكون، ويفك كل الألغاز التي تحيط به في لحظات الدهشة، ولحظات التفوق على الرقابة وعلى المنطق المفروضين عليه في هذا الواقع، إنه اللاأوق واللازمان واللامكان، فالشعر «... لا يقبل أي عالم مغلق ولا ينحصر فيه بل يفجره ويتخطاه، فالشعر هو هذا البحث الذي لا نهاية له»⁷

إن الشعر يريد التحرر، ينفّر من الانغلاق والتفوق يتخطى السائد، ويذهب إلى المجهول، ليكتشف خباياه وسرّه، إنه كشف ومغامرة، دونما حسابات، ولا تأويلات ولا احتمالات، إنه محاولة كسر لهذا الواقع والهروب منه، «فالقصيد لا تتشبه بالواقع سواء كان ظلاماً أو نوراً»⁸.

إذا الشعر لا يشبه أي شيء، ولا يريد أن يتشبه بأي شيء، إنه التحرر الحقيقي والابتعاد في سبيل البحث واكتشاف الحقيقة، وفي وصوله إلى هذه الحقيقة، فقد يحقق هدفه الذي يسعى إليه، إنه سعي دائم ومطاردة مستمرة في سبيل الوصول إلى التحرر الكامل، وفي الوصول يجد الحرية التي يبحث عنها، والتي من أجلها يكرّس كل العوامل الموجودة في الطبيعة، وكذلك الخيالية،

ويقوم بعملية مزج بين هذه العناصر وتلك، كي يرسم عالمه الفريد الذي يسعى إليه؛ لأنه « يتفتح ويزدهر إلا في مناخ الحرية الكاملة، حيث الإنسان مصدر القيم، لا الآلهة ولا الطبيعة... »⁹، و من يولد في أحضان الحرية لا يمكن له العيش ولا يستعد بالمقام في غير هذا المكان، إنه أجمل مكان، ومن يعيش في هذا المناخ لا يمكن حصره، ولا معرفته؛ لأن « الشعر لا يوصف ولا يحدّد، ومن لا يعرف الشعر أو لا يحسه مباشرة يستحيل أن تكون لديه أية فكرة عنه... »¹⁰

فالشعر لا يمكن حصره بزمان معين أو مكان، ولا يمكن كذلك أن تقيس المسافة بينك وبينه، إنه قريب منك وبعيد في الوقت نفسه، فحين ترى نفسك قادرا على قول الشعر وتستعد، تجده قد هرب، وحينما تنساه يأتيك، فهو يأتي كما يشاء ويجاني متى يشاء، إنه حر في كل الأوقات وفي كل الأماكن، إنه لا يُلقن، ولا يمكن لك أن تقترب منه لتعرف أسراره و كوامنه. إذا «... الشعر لا يمكن تعلمه وتعليمه»¹¹، إنه هبة من الله سبحانه وتعالى لا يهديها لكل الناس، فهي تخص فئة محددة تسمى فئة الشعراء الذين يملكون الإحساس المرهف والقوي فيقربون منك الصورة التي تريد أن تتعد عنها، ويعيدون عنك الصورة التي تريد أن تقترب منها .

فالشعر لعبة المتناقضات، إنه عالم لوحده بما تحمله هذه الكلمة من معان ودلائل فهو «... عالم مغلق مكثف بنفسه، ذو وحدة كلية في التأثير، توتر واقتصاد في جميع وسائل التعبير، وهو يترك الوعظ والإخبار والحجة والبرهان ليسيق، إنه يبنى علاقته بالآخر على جسور أعمق غورا في النفس، وأقل تورطا في الزمن المؤقت والقيمة العابرة، فلا غاية زمنية له، وهو أكثر ما يكون امتلاكا للقارئ وتحريرا له وانطلاقا به، بأكثر ما يكون من الإشراق والإيحاء والتوتر.»¹²

إنه عالم مغلق مكثف بذاته، يمكن له بأن يدخل إلى أي عالم آخر مقتحما حدوده متجاوزا كل الحواجز واصلا إلى غايته الأسمى، وهي التطهير والتنقية، إنه باختصار الوصول إلى السمو والرفعة، إنه لا يسمح إلى عالم آخر بأن يقتحم حدوده، مع أنه يقتحم كل الحدود، إنه يأسر المتلقي ويجرره في الوقت ذاته، ليست له غاية محددة يريد أن يصل إليها، مع أن له القدرة

وإمكانية الوصول إلى كل الغايات، فهو يخاطب النفس مباشرة دونما واسطة، ويبقى «الشعر طريقة نوعية في الاستكشاف والمعرفة»¹³

الشعر يدخل إلى النفس فيكتشف مالا تستطيع هي أن تكتشفه، إنه يتمتع ويفيد ليسبح بداخلنا، يوقظ أحاسيسنا ويغمرنا بالبهجة والسرور في لحظة يأسنا، إنه المسار الذي نسلكه حتى نصل إلى غاياتنا التي نبحت عنها منذ سنين، إنه الكشف والإيضاح والإبهام والغموض والرمز والإيحاء الجميل، الذي يحمل النفس إلى الأفق البعيد، كي تطير بلا أجنحة، فحينما يصير الشاعر بناء ومهندسا ورساما، حينها ينقلنا إلى عالم ليس عالمنا ولكننا نصير من أهله، ولا نريد الخروج منه، يشدنا شيء خفي إليه فنتشبث به، إنه العالم السحري الذي يصنعه الشاعر لنا، إن «الشعر هندسة أصوات حروف، نعيم بها في نفوس الآخرين عالما يشبه عالمنا الداخلي». ¹⁴

الشعر ينطلق من الحرف، ويرسم بهذا الحرف عالما غريبا، عالما ممتعا تنمو وتسكن فيه الأحاسيس والأحلام والطموحات والأمان، وتنطلق منه، إنه الحياة الحقيقية بما تحمله كلمة «الحياة» من معان السمو والرفعة .

ومن خلال هذه المفاهيم العديدة التي أبرزها الشعراء والنقاد نجد أنه لزام علينا أن نقدم بعضا من الأمثلة الشعرية، التي رأينا أن بعض المفاهيم تنطبق عليها ومن هذه الأشعار نجد قصيدة يشبه صاحبها الشاعر بالطائر، وهو محق في هذا التشبيه؛ لأن الشاعر حين يعبر عن أي شيء، فكلما قال شعرا كلما وجد نفسه أكثر حرية حين يقول : أحمد البخري¹⁵

ليتني كنت شاعرا فيلسوفا *** أنشد الشعر في الحياة شغوفا

أتغنى كالطير يشد ودوما *** في رباه غناه المألوفا

والنسيم يردد اللحن في الكو *** ن جميلا يسي العقول لطيفا

وخرير المياه يحكي انسيابا *** وأوراق الأشجار تبدي حفيفا

إن هذه الأبيات برغم أنها قريبة منا، أي أن معناها لا يتعب المتلقي في الوصول إليه إلا أنها تناشد الشعر مناشدة كبيرة وتعطيه مكانته الحقيقية، فهي تقدم مفهومها للشعر خاصا به وحده، فهو فلسفة وتغني وشدو ونشيد وغناء وألحان وخرير وانسياب وحفيف .

فالشاعر في هذه الأبيات الأربعة قدم لنا سبعة أوصاف للشعر، وكلها أوصاف تبعث بداخلنا الأمل، والرغبة في الحياة وتجديد العهد والمصالحة مع الأيام والانطلاق للوصول إلى غد أفضل .

ثانيا- وظيفة الشعر:

إن الأدب مرآة عاكسة في جلّ الأحيان لواقع المجتمع، فالشاعر أو الكاتب ينقل صورة المجتمع في قصيدة شعرية أو في رواية، وبذلك يتلقاها المتلقي كي يرى نفسه ويرى مجتمعه في هذا العمل الأدبي، وبذلك فهي تمثل لنا دروسا عظيمة من خلالها نستطيع التغلب على كل الصعاب والعراقيل التي بإمكانها أن تعرقلنا، وبإمكانها أن تجعلنا نتقهقر، ولكننا حينما نقرأ بيتا شعريا، أو جملة نثرية تحمل نصيحة غالية، فإننا حتما سوف نتأثر بمعناها، ونعمل بما جاء في البيت الشعري، أو في الجملة النثرية، فقد نصل إلى ما نحلم به ونتغلب على كل العراقيل، وأني كدارس، وكمشروع باحث في أحيان عديدة يصيبني الملل والعياء إلا أني حين أتذكر قول الإمام الشافعي¹⁶ .

اصبر على مرّ الجفا من معلّم ... فإن رسوب العلم من نفراته

ومن لم يذق مرّ التعلّم ساعة ... تجرّع كأس الجهل طول حياته

يزول عني كل العياء، وتتولد بداخلي طاقة عظيمة ويغمر نفسي الحماس، ويصبح البيتان زادا وسندا لي يغذي ويُدفعني دائما إلى الأمام، وهذه هي رسالة الأدب ووظيفته السامية التي يسعى لتحقيقها على أرض الواقع، وكثير من الأبيات والنصوص، تمثل لنا مرجعا كبيرا، نعود إليه كلما أحسنا بشيء من الضيق، وهذه الأبيات تساعدك في جميع مجالات الحياة؛ لأن الشاعر يسبح بخياله في كل الأرجاء والأنحاء، لذلك لا يجدُ شيء من هذا الخيال، فمهمة الشاعر السامية تجعله ينحت من نفسه كي ينير درب الآخرين، فهو كالشمعة تحرق نفسها وتذوب في سبيل سعادة الآخرين، هذه مهمة الشاعر الحقيقية .

لذلك نقول : الشاعر إنسان حقيقي يتألم مع البائس ويساند الضعيف، ويكفي مع اليتيم إنه باختصار إنسان حسّاس يئن لأبسط الأشياء، ونجده في كل المواقف معبرا واصفا بعدما احترق بلهيب التجربة، فيعبر عن هذه الظواهر الإنسانية، كي نجعل نحن المتلقين من هذا التعبير مسلكا ومسارا نصل من خلاله إلى مراحل الاطمئنان، فالشاعر فنان بمعنى الكلمة يرسم بحروفه وصوره وتعايره أجمل القصائد، التي تنقل الحقائق بلمسة فيها من الإبداع ما يثير فضولنا ويرغبنا في متابعة

حيثيات تجاربه العديدة المسجلة في قصائده، و«إنّ النبي والفيلسوف والفنان—إذن—أصوات شرعية ... ومجال رؤيتهم هو الظاهرة الإنسانية...»¹⁷

فهؤلاء همهم الوحيد ليس ذواتهم الخاصة، ولكن ما يؤرقهم هو حياة الإنسان بصفة عامة، فهدفهم إيصال الإنسان إلى مراتب عالية من السمو والرفعة والرقي الحضاري، وأن يجعلوا منه إنسان الأخلاق والفضائل والإنجازات العظيمة، لا إنسان العجز والكسل، فكل واحد من هؤلاء سواء أكان نبيا أو فيلسوفا أو فنانا يسعى جاهدا كي يحقق العدالة في هذا الكون ويعلي صوت الحق، فهي مهمة صعبة، ولكن كل واحد منهم لا يكل ولا يمل، ويبقى دائما في سعي مستمر كي يحقق غايته المنشودة، بأن يجعل هذا العالم سعيدا، وهي أولى الغايات التي يسعى إلى تحقيقها الشاعر من خلال شعره ورسالته السامية .

إنه يتأمل دائما، ويسبح بخياله في هذا الكون يبني ويعيد البناء، يرمم، يعلي، ويجدد ومن هنا نقول: « كانت مهمة الشعر العربي في النظرة التقليدية أن يلاحظ العالم فيستعيده ويصفه، أما مهمته في النظرة الحديثة فهي أن يعيد النظر أصلا في هذا العالم أن يبدله أن يخلق رؤيا ويرتاد ويجدد ». ¹⁸، إنها الخلق، وفي هذا الخلق جهد مضمي لا يحس بمعاناته إلا الشعراء الذين يحترقون بنيران التجارب وينحتون من أنفسهم، ويكتبون بدماء قلوبهم لينيروا طريق الإنسان جاعلين من هذه الكتابات سلما يصعد من خلاله الإنسان إلى مراتب السمو والرفعة كي يرى العالم رؤية صحيحة؛ لأن الشاعر ينقل بأمانة كي يصحح للمتلأمل أخطاءه، فهو المرآة التي نرى أنفسنا فيها، وهو العين الباصرة والضمير الحي والقلب النابض في جسد أمته، إنه الناطق الرسمي والمتكلم الحقيقي باسمها و« أن يصل الشاعر إلى موقع الضمير من أمته، أو تسكن هي تلا فيف حنجرته، فتلك هي المهمة الخالدة للشعر والشاعر ...»¹⁹

هذا هو دور الشاعر ووظيفة شعره، بأن يجعل من هذا الشعر الذي أصدره بعد استخدامه وصراعه مع ثورة داخلية تأججت بوجوده فصار كبركان يغلي، ليقدف بعدها حمم سلام توظف الأمة من سباتها، إنها تلك الكلمات التي ألقها الشاعر، كي تصبح وظيفتها تتجلى وتتضح فتقلنا من الأوهام إلى الحقائق، ومن الظلام إلى النور. أي من الموت إلى الحياة .

هذه باختصار وظيفة الشعر، إنه«... يوقظنا ويخلصنا من الأفكار المشتركة الضيقة.»²⁰، إنها دعوة صريحة من الشعر والشاعر إلى التحرر من كل شيء وخاصة من الأفكار

التي تدعوننا إلى التوقّع، إنه يدعوننا إلى كسر هذا التوقّع والخروج إلى العالم المضيء، العالم الذي يجعلنا أكثر تحررا، كي نرى أنفسنا على حقيقتها، ونصلح ما يجب علينا إصلاحه في ذاتنا، لكي نستطيع التعامل مع أنفسنا أولا، ومع المجتمع ثانيا .

إن للشعر وظائف لا تخصى ولا تعد، فهو قبل أن يكون شعرا هو رسالة تعبير وهذا التعبير دائما يدعو إلى الأفضل، فهو ينقل هذا الإنسان من الضياع إلى الجدية ومن الكسل إلى النشاط والعمل الدؤوب، وكذلك من وظائفه السامية أنه يعمل على قيام المصالحة بين الإنسان ونفسه وهو أعظم عمل يقوم به الشعر، كما أنه يقدم لنا النصائح الغالية والثمينة، وهذا أحمد شوقي يبين ويبرز لنا أهمية وقيمة الكتاب في حياتنا حينما يقول²¹ :

أنا من بدل بالكتب الصحابا *** لم أجد لي وافيًا إلا الكتاب

صاحب إن عبته أولم تعب *** ليس بالواجد للصاحب عابا

كلما أخلفته جدّدي *** وكساني في حلي الفضل ثيابا

إن هذه الأبيات تقدم درسا من دروس الحياة، وهو أهم درس وأغلاها على الإطلاق فهو درس عن الكتاب، الذي تغنيك صحبته عن كل شيء، فهو يفيدك ويمتلك وينير عقلك ودربك، ومن خلاله تعرف حقيقة الحياة، وتعرف ذاتك ومن يعرف ذاته فقد حقق أول هدف في هذه الحياة .

كما أن الشعر من وظائفه أنه يثبثك على المغامرة وعدم التوقّع، فهذا المتنبي ينطق بالحكمة الفلسفية، ويحثنا من خلالها على المغامرة حين يقول²² :

إذا غامرت في شرف مروم... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير... كطعم الموت في أمر عظيم

نلاحظ أن الشاعر قدّم لنا في البيتين عصارة تجاربه، مبيّنا وناصحا ومرغبا ودافعا وكاشفا ومبرزا، بأن المغامرة توصلك إلى تحقيق غاياتك السامية، كما أنها تحقق لك أهدافا أعظم من أهدافك التي سطرتها، فأنت غامرت في هذه الحياة، لذلك قدم شيئا عظيما يكون نافعا لك وللمجتمع أفضل من تقديمك لشيء بسيط، كما نجد المتنبي كذلك يقدم درسا آخر من دروسه العظيمة، التي نتجت بعد صراع مع الحياة، فمرة ينجح ومرة يخفق، وهذه الإخفاقات والنجاحات

ولدت شاعرا كبيرا اسمه المتنبي، الذي يقدم لنا أشعارا كل بيت منها يمثل درسا من دروس الحياة، وهذا في قصيدته الميمية حين يقول²³

على قدر أهل العزم تأتي العزائم *** وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها *** وتصغر في عين العظيم العظائم

يظهر المتنبي في هذه الأبيات عظيما، لذلك أنتج شعرا عظيما كما أن العزائم والهمم يكون حجمها بحسب أهلها، وكذلك قيمة الكرم بحسب قيمة الكرماء وصغير النفس كل الأشياء يراها كبيرة؛ لأنه هو في الأصل صغير، لذلك يرى كل الأشياء أكبر منه، وهو عاجز أمامها، أما الإنسان العظيم، فهو قادر على احتواء كل الأشياء، فالكبير يصبح أمامه صغيرا، والصعب يصير سهلا، حتى الحياة بأسرها تصير أمامه بسيطة، فهذه الأبيات هي مجموعة من النصائح يقدمها لنا شعر المتنبي كي نأخذ بها، فهي تجعلنا أكثر تحديا؛ لأنها تزيد من حماسنا وتضيف لنا قوة جديدة، كما أنها تجعلنا أكثر صمودا ومقاومة لعراقيل الحياة لتخطاها بثبات وشجاعة، فهذه هي وظيفة الشعر السامية.

الخاتمة

من خلال تناولي الشعر من ناحيتي المفهوم والوظائف خلصنا إلى أن الشعر يمكن مداعبته من بعيد ولا يمكن أن نوهم أنفسنا بأننا حددناه بمجرد تعريف، وكل التعريفات التي أصدرها الدارسون والنقاد تبقى وجهات نظر تعبر عن آراء أصحابها بحسب معاشة كل منهم وسباحته في بحر الشعر، كما أن وظائفه تبقى عديدة ومتنوعة بتنوع أشكال الحياة وألوانها وأقسامها وبعد محاولتنا في التقرب من الشعر ومفهومه ووظائفه وصلنا إلى العديد من النتائج ومن أهمها:

1. الشعر الحقيقي، هو الصادر عن تجربة واقعية . مؤلمة أو مفرحة . وللشاعر الحرية ليسبح في الخيال ويضفي على تجربته ألوانا من الخيال، وهذا بحسب مقدرة كل شاعر.
2. الشعر غائر الجذور ورحب الأفق لا يمكن حصره بتعريف
3. الشاعر المتفوق هو القادر على الجمع بين المتباعدات ورسم الصور القادرة على توجيه سلوك الفرد وتقويمها.

4. الشاعر يكتب في ثلاث حالات : الأولى وتمثل في الحالة التي حدثت لغيره وحكيته له فتأثر بها، والثانية وهي التي حدثت أمامه فتأثر بها فكتب عنها، والثالثة : وهي الحالة التي وقعت له هو، فكتب عنها، وتعتبر أصدق التجارب .
5. للشعر وظائف عديدة ومتنوعة، منها الخاصة والعامية، والتي كثيرا ما يبدع فيها الشعراء، مثل الشاعر معروف الرصافي الذي عبّر عن الأرملة أحسن تعبير، ومن خلال وصفه يوجه رسالة للمجتمع داعيا إياه للالتفات إلى هذه الأرملة ومساعدتها، وهذه من الوظائف الاجتماعية الداعية إلى التكافل الاجتماعي.

هوامش

- 1 - نزار قباني: قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت، ص 19
2. يوسف الخال : الحداثة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، ص81
3. أرسطو: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، ط1، بيروت، 1973، ص26
4. يوسف الخال: الحداثة في الشعر، ص 25
5. أدونيس: زمن الشعر، 102
6. زكرياء إبراهيم : مشكلة الفن، مكتبة مصر، ص 19
7. أدونيس : زمن الشعر، ص 43
8. أدونيس: زمن الشعر، ص 256
9. أدونيس: زمن الشعر، ص 43
10. منير العكش : أسئلة الشعر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1979، ص126
11. منير العكش : أسئلة الشعر، ص 126
12. حسين ناصر : في الشعر العربي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2001، ص178، 179
13. أدونيس : صدمة الحداثة، دار العودة، ط2، بيروت، لبنان، 1979
14. نزار قباني : الشعر قنديل احضرن منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ص 39
15. أحمد البحتري : غريب الحياة، المطبعة العصرية، تونس، 1988، ص 25.
16. ديوان الإمام الشافعي : ' لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150هـ - 204هـ)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ص 19
17. صلاح عبد الصبور : حياتي في الشعر، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1981، ص98

- ¹⁸. أدونيس: زمن الشعر، ص 44
- ¹⁹. سعيد حميد : طرائق الشعر، إعداد حسن الغربي، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، العراق، ط1، 1988
- ²⁰. أدونيس: زمن الشعر، ص 09
- ²¹. أعذب قصائد أحمد شوقي : سارة حسيني جابري، دار العوادي، عين البيضاء، الجزائر، ص 40 .
- ²². ديوان المتنبي : تحقيق محمد خداهش، ص197
- ²³ .. المرجع نفسه : ص 317